

التعددية الدينية

د. محمد الناصري

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب

الحديث عن التعددية الدينية حديث هام وشائك في آن، هام لأنه يمس موضوعا هو المحرك الأساسي للأفراد والشعوب، وشائك لأن كل كلام في التعددية الدينية هو كلام في السياسة فلسفة الدين معا. وإذا كانت المشكلة الفكرية هي المحور الأهم في التحدي الحضاري الذي يواجه المسلمين فإن تحديد موقف الإسلام من التعددية الدينية وما يرتبط بها من حريات، وخاصة حرية الاعتقاد هو المنطلق والأساس لمواجهة هذا التحدي.

إذ من العيب أن يحاول أحد إنكار ما حدث في حقب تاريخية كثيرة وطويلة وإلى يومنا هذا من كوارث إنسانية وأحداث دموية أورثت المجتمع البشري دمارا وخرابا وإراقة دم، إثر اعتبار الآخر المتفاوت والمختلف عقيدا مستحقا للعذاب.

وزخرت صفحات هذا التاريخ بالحاق أشد العقوبات وأقسى العذابات بأناس لم يكن لهم ذنب إلا الاختلاف في الملة والعقيدة، ولا نختلف الآن عن السابق كثيرا في وجود مثل هذه الصراعات والفتن العقيدية من أقصى مناطق الأرض إلى أقصاها، وأن الصراع العقيدي أو بالأحرى الصدام الفكري والعقيدي لا يمكن حصره في دين أو مذهب دون آخر.

إن الحروب والمعارك الدينية والمذهبية هي أشهر من أن نشعر بالحاجة إلى تسميتها ولا نفعل ذلك، والكل قد مارس ذلك إلا أن الحدود والمستويات مختلفة.

ورغم أن الإيمان الديني لا يقبل الإكراه والإجبار، وهو بدعي عقلا أيضا، غير أن محاولات ضاغطة ظهرت بكثافة وسعة في فترات زمنية مختلفة لثني أصحاب عقائد ورؤى عن عقائدهم، والحقيقة أن هذه الظاهرة غير جامدة في حقبة دون أخرى، حيث امتدت وبدرجات ومستويات تختلف من وسط إلى وسط، غير أن الجوهر واحد، هو السعي لشطب وإلغاء المخالف دينيا والنقيض عقيدا ليصبح أكبر تحد يطرح على المجتمعات الإنسانية هو: كيف يمكن أن نعيش سويا ومختلفين في احترام لكل الخصوصيات الدينية؟ لقد أصبح هذا السؤال سؤال العصر دون أن تقدم الإنسانية ما يساعدها على الجواب.

حين يطرح سؤال العصر على القرآن الكريم يغدو سؤالنا أقرب إلى الاستفهام الإنكاري منه إلى أي شيء آخر، لأن أهم ما مكن الإسلام من الانتشار والبقاء والاستمرار، سواء أكان ذلك في مراحل التمكين السياسي أم في مراحل ضعف الدولة أو اختفائها، هو الاعتراف بالحق في الاختلاف، والقبول بالآخر. هذه القيمة أتاحت للإسلام أن ينتشر في مختلف بقاع العالم، ثم مع الانتشار كان الاستمرار

الذي لا يعزى بأي حال إلى سلطان سياسي. وإنما مرده إلى الإقرار بأن أساس كل استمرار للحياة متحقق بالاختلاف والتنوع والتعدد¹.

والإسلام لا يقبل مبدأ احترام خصوصيات الآخرين فحسب، بل إنه يطالب المسلم شرعا بالوقوف والحرص على حماية تلك الخصوصيات على تنوع انتمائها، وذلك من أجل تحقيق قيم الإنسانية المشتركة بين البشر.

الاختلاف والتنوع في الخطاب القرآني

إن القرآن الكريم يحدثنا عن الاختلاف والتنوع في أكثر من خطاب، ووفق أشد الصيغ واقعية ووضوحا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ².

يقول سيد قطب في تفسيره الآية 119 من سورة هود: "ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد.. نسقا مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنوع فيها، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض، وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض ... شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين"³.

و"أمر التنوع في النص القرآني لا يتوقف عند هذا الحد، بل جاءت نصوص أخرى تؤكد عليه في أمر انقسام البشر إلى مجموعات بشرية تشكلت في أمم هي القبائل والشعوب، أي هي التشكيلات البشرية التي يوجهها النص القرآني إلى التعارف من أجل اللقاء، لا التصادم من أجل الجفاء والتناكر يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"^{4 5}.

من هنا فليس غريبا اختلاف البشر إذ إن اختلافهم فطرة إلهية وسنة ربانية في الخلق سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا⁶ وإذا كانت مسألة التنوع سنة إلهية وفق النص القرآني "فإن من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء وجعلهم نسقا

1- انظر، احميدة النيفر، جدل العالمية والخصوصية: قراءة للتعددية، م. قضايا إسلامية معاصرة، السنة العاشرة، العدد 31-32 شتاء وربيع 2006م/1427هـ، ص6 بتصرف.

5- سورة هود، الآيتان 118-119.

6- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثلاثون، 1422هـ/2001م، ج4، ص1933.

4- سورة الحجرات، الآية 13.

5- أسعد السجمراني، الإسلام والآخر، دار النفائس، ط، الأولى، 1426هـ/2005م، ص12.

6- سورة الأحزاب، الآية 62.

مكررة ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر عليها الناس، وغير نافع لو أمكن، لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة بل من خالف الفطرة عاقبته عقابا معجلا".⁷

الاختلاف والتعارف

يوضح القرآن الكريم أن التنوع الإنساني "موجه نحو (التعارف) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"⁸ والتعارف يقابل التناكر، قال تعالى: وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ⁹ والتعارف يؤدي إلى التآلف، كما يؤدي التناكر إلى التخالف والاختلاف، وفي الحديث: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"¹⁰. فالتنوع يؤدي إلى التعارف والتعارف يؤدي إلى التآلف والتآلف يؤدي إلى التآخي والتآخي يؤدي إلى التعاون على الفعل الحضاري الموصوف بالبر والتقوى"¹¹.

فالغاية من تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل ومجتمعات واختلافهم، أن يحترم بعضهم بعضا، ويعترف بعضهم بحقوق بعض، في إطار الكرامة الإنسانية المكفولة للجميع ومن "أبرز مصاديق تكريم الكائن الإنساني "ولقد كرّمنا بني آدم" وفق القرآن الكريم تكمن في أن حريته وبالتالي اختياراته المشتقة من قواعد الحرية نفسها لا تشكل سببا لحرمانه من حقوقه الطبيعية المكرسة ومنها حقه في أن يكون مختلفا"¹².

إن ما يميز الخطاب القرآني في دعوته إلى القبول بمبدأ التنوع والاختلاف هو "رده أولا إلى أساس الخلق كما في قوله تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين" وهو أساس يرتبط بمبدأ حرية الكائن الإنساني ومسؤوليته، حيث لا مسؤولية بدون حرية ولا حرية للكائن الإنساني فردا أو جماعة، دون امتلاك حق الاختلاف والتنوع"¹³.

لقد كرس -إذا- القرآن الكريم مبدأ التنوع والاختلاف لما يسهم به هذا المبدأ في إثراء التجربة الإنسانية وإغنائها، إذ الاختلاف -هنا- اختلاف تنوع وتكامل لا اختلاف تضاد وتناهد، وكذا لما يوفره هذا المبدأ من سبل للتعارف المؤدي إلى التعاون المحقق للسلام البشري ف "القرآن الكريم لا يشترط للسلام البشري نفي حق التعدد والاختلاف بل على العكس من ذلك فإنه يشترط للسلام البشري

7- يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط، الثانية، 1411هـ/1991م، ص 64.

8- سورة الحجرات، الآية 13.

9- سورة يوسف، الآية 58.

10- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، رقم الحديث 3158.

11- طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي، ط، الأولى، 1424/2003هـ، ص 29.

12- محمد حسن الأمين، فقه التعدد والاختلاف، م. قضايا معاصرة، السنة السادسة، 2002م، عدد مزدوج، 20-21، ص 74.

13- نفسه، ص 74.

الاعتراف بهذا الحق وحمايته ومن تم التعارف بين الجماعات المختلفة، أي الاعتراف المتبادل بينهما، والتزام مبدأ الحوار فيما يختلفون عليه"¹⁴.

ففي القرآن "يتحول التنوع والاختلاف من نقمة إلى نعمة، وعطاء وإغناء للمسييرة الإنسانية، ذلك أن الناس منحدرون من أصل واحد، وأن سنة التنوع هي سنة الخلق والاختلاف المناخي والجغرافي والديموغرافي والقومي والعرقى والديني ... هو الطريق إلى التعاون والتكامل والتعارف والتحاور والتعايش، إذ يستحيل عقلا وواقعا أن يكون البشر بطبائعهم نسخة مكررة عن بعضهم، عندها تستحيل الحياة وتتعطل الإرادات ويتوقف العمران"¹⁵.

وثانيا جعله أمرا نابعا من مبدأ الاختيار والابتلاء الذي أقام الله سبحانه الحياة على أساسه، حيث يتحدث سبحانه في العديد من آيات الذكر الحكيم عن مبدأ الابتلاء:

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ¹⁶

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ¹⁷

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا¹⁸

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ¹⁹

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ²⁰

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ²¹

¹⁴ - نفسه، ص 74.

¹⁵ - عمر عبيد حسنة، من مقدمة لكتاب: أحمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة: المضمون والدلالة، كتاب الأمة، قطر، السنة الخامسة والعشرون، ذو القعدة 1426 هـ، ع 110، ص 8.

- سورة محمد، الآية 31. 16

- سورة الانبياء، الآية 35. 17

- سورة الكهف، الآية 7. 18

- سورة محمد، الآية 4. 19

- سورة المائدة، الآية 48. 20

- سورة الأنعام، الآية 165. 21

إذاً، ابتلاء الإنسان -أي اختباره وامتحانه- مبدأ أساسي في الحياة، ومن لوازم الابتلاء هو وجود السبل المختلفة حتى يختار الإنسان أحسنها، ووجود الاختيارات الحياتية المتنوعة حتى يتبين من هو "أحسن عملاً"، بل الله القادر باستطاعته أن يلهم الناس الحق والحقيقة ويجعلهم أمة واحدة، ولكنه يأبى ذلك لأنه شاء أن يختبر الإنسان ويبتليه فيما آتاه من العقل، والفكر، والمال، ومقومات الحياة.

ولأن الله لم ولا يجبر أحداً على سلوك سبيل معين في الحياة، فهو لا يقبل منا أيضاً أن نجبر من نختلف معه ويختلف معنا على سلوك السبيل الذي آمنا بأنه السبيل القويم، وتبعاً لذلك لا يجوز لنا أن نقصي الآخرين ونسبهم حق ممارسة إرادتهم واختيارهم في الحياة، وقوله تعالى وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ²². إن هذه الآية تقرر التعددية ولا تنفيها. إذ إن الله تعالى لا ينفي وجود سبل مختلفة ومتعددة في الحياة، وإذا كانت سبل متعددة فلا بد أن يتبع كل سبيل أناس، إنما الله يوصي الإنسان أن يختار صراط ربه المستقيم، وألا يبتعد عن السبيل القويم. وعبارة: "ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون" تعني أن الإنسان حر في اختيار ما يريد إلا أن الله يوصيه بالاختيار السليم، فالبرغم من أن الله تعالى جعل ديناً واحداً للحياة والإنسان، وأقام كيان دينه على أساس قيم ثابتة دعا إليها الإنسان عبر العقل والرسول، إلا أنه لم يشأ سبحانه وتعالى أن يكره الإنسان على اعتناق الدين، لأنه خلق الإنسان حراً مختاراً، وأراد أن يمارس حريته واختياره في سك الصراط الإلهي الصحيح في الحياة، وهو ما ينسجم وقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ²³. فالله أوضح سبيل الرشd من سبل الغي بدلالة العقل في داخل الإنسان، وبتبليغ الرسل في الخارج، وترك الله للإنسان ساحة الاختيار الحر إنَّ هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا²⁴ "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"²⁵. بل حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكره أحداً على اعتناق شيء: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"²⁶.

إذاً فالله عز وجل يريد للإنسان أن يسير في طريق إيماني واحد رسمه له استناداً إلى حكمته ورحمته وعلمه المحيط بكل شيء، إلا أنه وفي الواقع العملي ترك للإنسان حرية القرار في الانضمام إلى

- سورة الأنعام، الآية 135. 22.

سورة البقرة، الآية 256. 23.

- سورة الإنسان، الآية 3. 24

سورة الشمس، الآيات 7-10. 25.

- سورة يونس، الآية 99. 26.

معسكر التوحيد أم التخبط في مناهات الأفكار والمعتقدات المبتدعة التي لا تقوم على أساس ثابت ورصين. فالتعدد في هذا المجال واقع وموجود ولم يشأ الله أن يتدخل لإلغائه لأنه أحد مجالات اختبار الإنسان وإرادته، هذا الاختبار الذي يشكل الهدف الأساسي للخلق: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ²⁷.

وإذا كان الله الخالق قد شاء عدم التدخل لإكراه الناس على السير في سبيله الرشيد والواضح، فكيف يحق لنا ونحن عبيده أن يجبر بعضنا بعضاً على سلوك الصراط القويم والإيمان الحق؟. نحن علينا -كما على الرسل- البلاغ، والهداية، وتبيان الطريق للآخرين، ومساعدتهم على الاختيار السليم في الحياة: وَإِنْ مَا نُزِّنَتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ^{28,29}.

الاختلاف والتعددية

في هذا التأصيل لمبدأ التعددية، يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره. فالتعددية في الإسلام تعني أولاً: الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعا أو أكثر.

وتعني ثانياً: احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف في العقائد. وتعني ثالثاً: إيجاد صيغ ملائمة للتعبير عن ذلك في إطار مناسب وبالحسن بشكل يحول دون نشوب صراع ديني يهدد سلامة المجتمع.

إن مفهوم التعددية الدينية هذا يتضمن الإقرار بمبدأ (أن أحدا لا يستطيع نفي أحد) وبمبدأ (المساواة في ظل سيادة القانون) وهو يلتزم بمبدأ حرية التفكير والتنظيم واعتماد الحوار واجتناب الإكراه.

وقد جاء الإسلام بنظرات حول الكون والحياة والإنسان..ويمكننا أن نستخلص من هذه النظرات أن مبدأ الاختلاف بين الناس هو أحد سنن الله في الكون، وهو واقع بمشيئته سبحانه، وقد أثبتته القرآن الكريم، ويرتبط مبدأ الاختلاف هذا بمبدأ الحق في الاختيار الذي أقره الإسلام و أثبتته القرآن الكريم أيضا بعد أن فطر الله الإنسان عليه.

-سورة المائدة، الآية 48. 27

- سورة الرعد، الآية 40. 28

²⁹ انظر، حسين الصادق، مبدأ التعددية، مجلة البصائر، السنة الخامسة عشر، خريف 1425هـ/2004م، العدد 34، ص145

و تتجلى إيجابية الإقرار بالاختلاف في دعوة القرآن المسلمين أن يعدلوا مع من يعادونهم لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ³⁰

وهكذا يعطي الإسلام التعامل الإيجابي مع عقائد الآخر ومذاهبه المغايرة وأفكاره بعدا عقديا يستند إلى التوجيه والتكليف الإلهيين، وقد لاحظ بعض الباحثين أن القرآن أثبت كل نقد وجه إلى الإسلام وقت نزول الرسالة، حتى وصفه البعض بأنه: خلد الفكر المضاد بين دفتيه، فهناك عدد من الآيات نزلت في سياق تبادل الحجج بين النبي والمشركون في شأن الدين الجديد..وقد فتح هذا التعامل الإيجابي البابلتبادل النقد والتقويم في سياق عملية الإقناع والتبشير برسالة الإسلام فضلا عن تثبيت العقيدة في النفوس³¹.

لتصبح التعددية في الإسلام؛ تعني في جوهرها، التسليم بالاختلاف، التسليم به أفقا لا يسع عاقلا إنكاره والتسليم به حقا للمختلفين لا يملك أحد أو سلطة حرمانهم منه، وهي معنية بالموضوع الذي يكون الاختلاف حوله، أو الذي ينحصر فيه نطاقها، فتكون دينية، ومذهبية، ولغوية، وثقافية عرقية، سياسية.. ولقد تميزت رؤية الإسلام في مسألة النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، والتعامل مع المنتمين لها والمعتنقين لعقائدها، بالاعتراف وضرورة تفعيل هذا الاعتراف من خلال القبول به ومحاورته، والتمكين له، وتأمينه إلى حيث جعله في الشريعة الإسلامية جزءا من الذات الإسلامية الواحدة.

وفق هذا المنظور تغدو مسألة التعددية، أولا إقرارا بالاختلاف، ثم وعيا بأهمية هذا الاختلاف الديني والثقافي، وهي ثالثا تحويل ثقافة الآخر إلى مكون فاعل يساهم في تشكل الهوية ونموها عوض أن يكون عنصرا مهيمنا عليها، وهي أخيرا وليس آخرا دعوة إلى محافظة كل مجموعة على جوهر إيمانها الخاص، وعلى نظرتها المميزة إلى العالم، مع إتاحة الفرص لمزيد فهم معتقدات الآخر والوقوف على رؤيته الثقافية³².

التعددية الدينية في علم اللاهوت الغربي

وهذا يختلف مفهوم التعددية كما رسمه الإسلام -اختلافا جذريا- عن مفهوم التعددية الدينية في علم اللاهوت الغربي، فمعلوم أن التعددية الدينية، شاعت "في العالم المسيحي خلال العقود الأخيرة بفضل جهود جون هيك، وهو قس من طائفة (بير سبنوري) في بريطانيا كما أنه

8. سورة الممتحنة، الآية³⁰

117ص، 1990 صدقي الدجاني، وحدة التنوع وحضارة إسلامية في عالم مترابط، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط، الأولى،³¹

-انظر، - احמידة النيفر، م.س، ص.6. 32

متقاعد حالياً ويقوم في أمريكا التي مارس التدريس فيها أعواماً طويلة³³. ويعني المفهوم بحسبه مشروعية كل الأديان والعقائد، وأن جميع الأديان والعقائد على حق، ومن ثم تعدد طرق السعادة والحقيقة، وأي طريق يسلكه الإنسان يدخله الجنة وينجيه من النار³⁴.

فجون هيك يعتقد أن التفسير الأمثل للتعددية الدينية الماثلة في عالمنا هو الإقرار جزماً بأن الأديان جميعها تتبلور حول حقيقة لاهوتية واحدة هي الحق في ذاته المتواري عن أن تدركه الأبصار والمجاز لأني نعت أو توصيف، ولكل هذه الأديان تاريخيتها الاستجابية الخاصة لله وموروثاً روحانياً خالصاً، وإراثاً دينياً متميزاً، يعبر البشري من خلاله عن تكهنه لحقانية الله وإدراكه لسمات الكمال والتمام فيه وتجربة الاتصال به، لكن هذه الانصالية به تختلف بحسب الأسماء المتعددة للمعبود الواحد، وتاريخ الأديان حافل بعدد عظيم من أسماء الكيانات اللاهوتية، لكن الأديان تتفق على وقائعتها، وأن الناس على اختلاف نحلهم يعبدون معبوداً واحداً، رغم اختلاف إشاراتهم وتنوعها، فهم كلهم يتفقون حول "الحق في ذاته" وأن التقليد الديني لجميع الأديان يحرض بشدة على تعالي الحقيقة الإلهية عن كل نعت أو فهم، ومع ذلك فإنه يحرض على تأكيد أن ما نحذقه عن الله إنما هو في حدود تجليه سبحانه وتعالى، وحدود التجربة والاختيار البشريين. كما أن معرفتنا بالله ليست مجرد استجابة اعتباطية، بل يكمن وراء معرفته سبحانه وتعالى إرث ثقافي وحضاري مهيب³⁵.

ويرى جون هيك أن التجربة الدينية هي عبارة عن استجابة عفوية حرة للحق المطلق، وذلك عبر ترجمة المعطيات، جوانية كانت أم برانية، إلى حقائق تتبلور حول الإله، وهذا يعني أن الحقائق الإيمانية ليست في مقدور العقل ولا يدان له بتكهنها بسهولة، بل تتطلب جهداً جهيداً وانعتاقية انبجاسية للأفئدة، لإدراك الحقائق العلوية اللدنية وحذقها، نحوّل عبرها ما نتبصره في العالم البراني وما نسمع حسيه في كوامننا إلى حالة اختبار روحاني ومحدوقية لاهوتية، وبالتالي يكون الله معروفاً بالنسبة لأولئك الذين يسعون وراءه بأفئدتهم التواقة المخلصة، حيث أعطاهم الله إشارات مرئية يراها فقط أولئك الذين خلصوا له نجياً³⁶.

ولعل هذا المعنى يفقد التعددية معناها، لأن كل شيء يكون صحيحاً، وكأن المعايير تنهار والحدود تتلاشى، وتتداخل الأمور، وتلغى الفواصل والمسافات بين الحقيقة وسواها. إن التعددية

35- محمد لغنهاوزن، التعددية الدينية بين الإسلام والليبرالية، حوار في البنى والمنطقات، تعريب سرمد الطائي، مجلة الحياة الطبية، ع 11، السنة الرابعة، شتاء 2003م/1423هـ، ص 17.

34- جون هيك، هل المسيحية هي الديانة الوحيدة الصحيحة، م. قضايا إسلامية معاصرة، العدد 20-21، 1423هـ/2002م، ص 262.

35 وجيه قانصو، التعددية الدينية في فلسفة جون هيك: المرتكزات المعرفية واللاهوتية، المركز الثقافي العربي، البيضاء، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط، الأولى، 2007م، ص 77.

نفسه، ص 77.³⁶

الدينية بمعناها اللاهوتي الغربي، تتعارض والرؤية الدينية الإسلامية، بحيث تتكاثر الآيات القرآنية على نفي هذا المعنى بصراحة كاملة.

التعددية الدينية من منظور قرآني

ف "ثمة آيات كثيرة في القرآن تتحدث عن "الصراط" بعضها يصفه بـ "المستقيم" أو "السوي" كما يتحدث بعضها الآخر عن ضرب خاص من "الصراط" بإضافته إلى "ربي" و"ربك" و"العزير" والمجيد" أو بإضافته إلى "ياء المتكلم" بحيث تعدد هذا هو الصراط وما سواه طرقاً منحرفة على هذا لا يمكن التعاطي مع "الصراط" على أنه نكرة وهو يختص بهذه الأوصاف، ومع ما نشهده من إضافته إلى مجموع هذه المصطلحات والصفات، ومن ثم لا يصح استنتاج نظرية "الصراط المستقيمة" وعد الطرق المتعددة في الأديان مسيراً واحداً يوصل إلى السعادة والحقيقة، ثم نسبة هذه النظرية بعد ذلك إلى القرآن، خاصة مع ملاحظة "ألف ولام" التعريف التي اقترنت بهذه الكلمة في القرآن ودلالاتها على الحصر، كما في قوله سبحانه: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ³⁷ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا^{38,39}. ومما يدل على وحدة الصراط المستقيم تقييد الله عز وجل لهذا الصراط قائلاً سبحانه: صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ⁴⁰. وأن هذا الصراط الوحيد هو الإسلام. والقرآن شديد الوضوح في هذا الإقرار: قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ⁴¹.

"وعليه فجميع شرائع الأنبياء إنما هي سبل إلى الدين الإسلامي، وبهذا فجوهر الشرائع السماوية كلها واحد، ولكن هل ما بين أيدينا اليوم من شرائع موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام هو ذات ما أنزله الله عليهم، أم أن الشريعتين السابقتين تعرضتا للتحريف؟ وهل تتمتع هذه الشرائع الثلاث بالحقية والصحة بموازاة بعضها، وبنحو متزامن أم أنها مثلت الحق في أزمنة معينة بشكل متعاقب، وما عادت تمتاز بالحقية في زمن لاحق؟ وبالتالي هل يضطرنا قبول الشرائع المختلفة إلى قبول التعددية في مقام الاعتقاد، أم في مقام التعامل بين أتباع الشرائع المختلفة أي على المستوى الذي يراد لهم فيه أن يعيشوا حياة سلمية؟⁴²

³⁷ - سورة الأنعام، الآية 153.

³⁸ - سورة مريم، الآية 43.

³⁹ - الحسين خسروناه، التعددية الدينية، رؤية من المنظار الديني، تعريب ماجد علي، مجلة الحياة الطبية، م.س، ص 79.

⁴⁰ - سورة الشورى، الآية 53.

⁴¹ - سورة آل عمران، الآية 84.

⁴² - غلام رضا المصباحي، الصراطات اللامستقيمة، قضايا إسلامية معاصرة، ع20-21، سنة 1423هـ/2002م، ص 173-174.

لقد حكم القرآن الكريم على الرسالات السماوية التي سبقته بالتبديل والتغيير، بفعل التحريفات التي أوجدها أتباع تلك الشرائع في كتبهم ومراجعهم، وهذا ما تتكاثر الآيات القرآنية على إثباته، "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"⁴³

فجاء القرآن الكريم مبينا لهذه التحريفات كاشفا لها، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁴⁴. ومهيمنا عليها وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ⁴⁵.

إن القرآن الكريم كرس مبدأ التنوع والاختلاف باعتباره ضرورة كونية، وأمر واقعاً، نابع من طبيعة الحياة والكون والإنسان وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁴⁶ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ⁴⁷ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁴⁸.

فقوله تعالى "لكل وجهة" يثبي من خلاله المصطلح القرآني إلى تعدد الوجهات والسبل وما يستتبع ذلك من تعدد في الأديان والعقائد واختلاف في القبلية والشرعية، والقرآن يعترف بهذا كله، وبهذا أخذ مبلغه صلى الله عليه وسلم في حياته الواقعية في علاقته بأتباع الأديان الأخرى وبه أخذ صحابته من بعده فأتيج في معظم مساحات التاريخ الإسلامي لمختلف أتباع الديانات الأخرى، أن

43- سورة المائدة، الآية 41.

44- سورة النحل، الآية 64.

45- سورة المائدة، الآية 48.

46- سورة الروم، الآية 21.

47- سورة المائدة، الآية 48.

48- سورة البقرة، الآية 148.

يعبروا عن أنفسهم في أمن وسلام، وأن يمتلكوا شروط ومقومات البقاء والاستمرار في الدولة الإسلامية من غير إقصاء أو إلغاء"⁴⁹.

إلا أن "القبول بهذا التعدد لا يعني تصويب كل السبل المتفرقة واعتبارها صحيحة جميعاً، فمما لاشك فيه أن سبيل الرشـد في الحياة واحد وصراط الله المستقيم واحد لا غير، وليست كل السبل المختلفة والمتناقضة سليمة، بل الفكرة التي نؤمن بها هي : أن الله أعطى للإنسان حرية الاختيار، فلا يحق لنا أن نسلب هذا الحق منه، فالتناس في الحياة الدنيا يواجهون صراعات الخير والشر، ومعارك الحق والباطل، وعلمهم أن يختاروا بملء إرادتهم وحريةهم سلوك سبيل الخير وطريق الحق، وعلى المؤمنين بالله المنتهجين منهاج دينه الحنيف أن يدعو الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ... ولكن ليس من حقهم إكراه أحد على سلوك صراط معين، وسلبه الإرادة والحرية والقدرة على الاختيار، كما ليس لهم أن يسلبوا خصومهم حق الحياة كبشر، وحق ممارسة العيش بعزة وكرامة، ماداموا يحترمون حقوق الآخرين وحدود التعامل السليم مع كل أطراف المجتمع البشري"⁵⁰.

بهذا المعنى يؤسس القرآن الكريم للتعددية الدينية، إذ يقر بتعدد الاتجاهات الفكرية والعقائدية في المجتمع والحياة، لكن مع التأكيد على وحدة الحقيقة ووحدة الصراط المستقيم. فالإنسان في الرؤية القرآنية مطالب بالكـدح والمكابدة، واستباق الخيرات لسلك الطريق المستقيم في حرية كاملة واختيار حر، لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ⁵¹، وبهذا فالقرآن من منطلق مبدأ الاختلاف والتنوع لا يلغي الديانات الأخرى ولا يحظر وجودها، بل يعترف بها تاركا لها حرية الاختيار، وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا⁵² ولكن لا يصححها ولا يصوبها كما هو الشأن في الفكر اللاهوتي الغربي.

ف"في المنظور القرآني يبدو التنوع مستقطبا عبر مجراه الطويل بكلمتي الإيمان والكفر أو الحق والباطل، ترفده جداول وأنهار متشابكة تـجيء من هذا الصواب أو ذاك، ومن خلال هذا التـغاير تتحرك مياه التاريخ فلا تركد ولا تأسن وتحفظ بها قدرتها على التدفق والنقاء. إن الإرادة الحرة والاختيار المفتوح اللذين منحنا للإنسان فردا أو جماعة للانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك، يقودان بالضرورة إلى

49- حسين الصادق، مبدأ التعددية قراءة في أصول الفكر الشيوعي، مجلة البصائر، ع24، السنة الخامسة عشر، خريف 1425هـ/2004م، ص 146-147.

50- نفسه، ص 147.

51- سورة البقرة، الآية 256.

52- سورة الكهف، الآية 29.

عدم توحيد البشرية وتحولها إلى معسكر واحد، إن قضية الحياة الدنيا وصيرورتها المبدعة تكمن في هذا التغير⁵³.

"أما عن الهدف من هذا التغير فإن القرآن يجيب" فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ⁵⁴ ... إن هذا التغير والتدافع المركوز في جيلة بني آدم يقود إلى "تحريك" الحياة نحو الأحسن وتخطي مواقع السكون والفساد ومنح القدرة للقوى الإنسانية الراشدة كي تشد عزائمها قبالة التحديات وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفذ أمر الله وكلمته في العالم⁵⁵ عن طريق التعارف العملي والتعايش السلمي.

ربما نستطيع القول: إن الإسلام اعترف بشيء من التعدد على كثير من المستويات مع حفاظه على مقولة الحق والتمييز بينه وبين الباطل وندب أتباعه إلى الحرص على متابعة الحق مهما كان مصدره.

وقد اتسع صدر الإسلام للكثير من التنوع والتعدد، فضمن الإسلام التعدد على المستوى الاجتماعي، وعلى المستوى التربوي، وعلى المستوى السياسي، فهل يستطيع الفكر الإسلامي المعاصر الإجابة عن سؤال "التعددية" الذي تطرحه العولمة على كافة المنظومات الثقافية من أجل التعايش أم أن تعثرنا سيتواصل؟.

53- عماد الدين خليل، المسلم والآخر، رؤية تاريخية، إسلامية المعرفة، س، التاسعة ع33-34، صيف وخريف 2003م، ص92.

54- سورة البقرة الآية 251، ونفس المعنى تفيدته الآية 40 من سورة الحج.

55- عماد الدين خليل، المسلم والآخر: رؤية تاريخية، م.س، ص 93.